دراسة بعنوان

مشكلة الإمامة في صدر الإسلام

د.هيفاء سليمان الإمام - العراق

رئيسة الجمعية الوطنية للثقافة والتطوير
ورئيسة مجلة وميض الفكر للبحوث
أستاذة جامعية وصاحبة مكتبتين في البقاع -لبنان

h_imamomais@hotmail.com

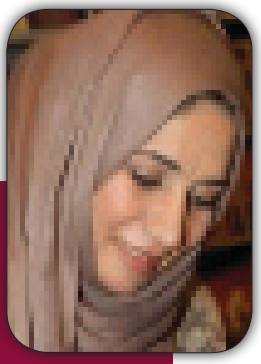

ملخص

إن الفكر السياسي عند المسلمين بعد العصر الراشدي، كان يدور حول محورين رئيسين صدرت عنهما كل الطروحات والأفكار والآراء السياسية والتي في كثير من الأحيان كانت السبب في اشتعال نار الفتن التي أدت إلى صراع دام بين أصحاب الدين الواحد عبر التاريخ الإسلامي. وقد تمثل المحور الأول بالنظرية الشيعية حول الإمامة، والتي تفرعت عنها بشكل أساسي الطروحات الإمامية والزيدية وبعض الفرق الأخرى. فيما تمثل المحور الثاني برؤية أهل السنة لهذه المسألة.

وأصبحت الطروحات تتحرك في الوسط الثقافي الواعي، أو في الوسط السياسي المسؤول على أساس السؤال: كيف نغلق باب الجدل في هذه المسألة الخلافية لنتجاوزها إلى عناصر الوحدة؟ أو على الأقل كيف نخفف من تأثيرها على الواقع الإسلامي لتبقى في دائرة جانبية أمام الدوائر الحيوية المؤلمة التي تفرض على العالم الإسلامي دون تمييز. ولمزيد من الإضاءة على موضوع الإمامة أو الخلافة، وما سببته من مشاكل عبر التاريخ الإسلامي كان هذا البحث.

الكلمات المفتاح: الخلافة، الشيعة، السنة، البيعة، السقيفة، الغدير

Summary

The political thought of the Muslims after the Rachidi era, was turning around two principal axes of which all propositions, ideas and political opinions have been given and in most of the times have been the reason of blowing seditions leading to a conflict among the members of one religion all along the Islamic history.

The first axis has been represented by the Shiite hypothesis about Imamate of which have branched mainly the propositions of Imamate troupe, Zaydi sect and other groups. And the other axis has been presented by the vision of Sunnah troupes.

The propositions have started moving in the aware cultural or the political responsible environment based on: How to close the way of argument regarding the Caliphate to overtake to union factors? Or how we decrease the impact of this case on Islamic reality to be in a separate circle beside the animated painful circles which are imposed on the Islamic world without a privileging. And for more highlighting on the issue and what it has caused of problems all along Islamic history, this research has been fulfilled.

المقدمة

لقد وضع الرسول ﷺ أسس المجتمع الجديد، وأهم هذه الأسس وأولاها بالإشارة بالنسبة للأنظمة السياسية، هو قيامها على أصول الدين، فالأنظمة السياسية في التاريخ الإسلامي كانت تتصف بأنها إسلامية أو بالأحرى دينية، ذلك لأن المسلمين كانوا يسترشدون بدينهم في أمور دنياهم[١].

بعد وفاة النبي ﷺ اجتمع الصحابة وانتخبوا خليفة لهم وهو أبو بكر الصديق ﷺ، قام بإعادة توحيد كلمة المسلمين بعد أن كادوا يتفرقون بسبب الخلافة. إلا أن هذه الوحدة أخذت تتزلزل في أواسط خلافة عثمان ﷺ، فأنشأت بين المسلمين مشادات ومنازعات وحروباً لا تحصى[٢].

إشكالية البحث

لذا لاحظنا بأن الفكر السياسي عند المسلمين بعد العصر الراشدي، كان يدور حول محورين رئيسين صدرت عنهما كل الطروحات والأفكار والآراء السياسية والتي في كثير من الأحيان كانت السبب في اشتعال نار الفتن التي أدت إلى صراع دامٍ بين أصحاب الدين الواحد عبر التاريخ الإسلامي. وقد تمثل المحور الأول بالنظرية الشيعية حول الإمامة، والتي تفرعت عنها بشكل أساسي الطروحات الإمامية والزيدية وبعض الفرق الأخرى.

فيما تمثل المحور الثاني برؤية أهل السنة لهذه المسألة. وأصبحت الطروحات تتحرك في الوسط الثقافي الواعي، أو في الوسط السياسي المسؤول على أساس السؤال: كيف نغلق باب الجدل في هذه المسألة الخلافية لنتجاوزها إلى عناصر الوحدة؟

---

(١) أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنا عشرية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ١٧.

(٢) منير العجلاني، عبقرية الاسلام في أصول الحكم، دار الكتاب الجديد، ط٢،١٩٦٥م، ص ١٠٤.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة الى العمل على التخفيف من تأثير الخلافات حول الإمامة أو الخلافة التي حدثت في بدايات التاريخ الإسلامي على الواقع الإسلامي لتبقى في دائرة جانبية أمام الدوائر الحيوية المؤلمة التي تفرض على العالم الإسلامي دون تمييز، لذلك يرى السيد محمد حسين فضل الله أن الحل ليس بأن نلغي المذهبيات بل الحل هو أن تحَوَّل المذهبيات إلى حركة فكرية في ساحة الصراع في فهم الإسلام[٣].

منهجية الدراسة

تعتمد هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي حيث يتم عرض الأحداث التاريخية وتحليلها ووصف الوقائع بشكل موضوعي وتقديمها للقارئ دراسةً علمية قابلة للنقد البناء.

أقسام الدراسة

تناولت الباحثة في هذه الدراسة مشكلات الخلافة ومراحل الاختلاف وأسبابها ونتائجها الهدامة عبر تاريخ صدر الإسلام، إذ كان أهمها العديد من المذاهب السياسية الإسلامية، تم عرضها والحديث عنها باختصار شديد، وكذلك عرض لمواضع الاختلافات الرئيسة عند هذه الفرق حول موضوع الإمامة. ثم عرض المصادر والمراجع والدراسات السابقة التي اعتمدت عليها في هذا البحث.

(٣) السيد محمد حسين فضل الله، كتاب الندوة. الجزء الخامس، إعداد عادل القاضي، دار الملاك، بيروت، ط١، ص ٢٩٢.

المشكلات حول الخلافة في صدر الإسلام

مراحل الاختلاف

إننا نلاحظ أن الوضع السياسي في المدينة عشية وفاة الرسول ﷺ كان على اتجاهين رئيسين، تنافسا بصورة مباشرة أو خجولة في محاولاتهما للسيطرة على الحكم[٤]. فبالرغم من أن المسلمين كانوا في عصر النبي ﷺ مجتمعين في مودة وألفة، أشداء على الكفار، رحماء بينهم، كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز. إلا أن بذور الخلاف كانت كامنة تحت الرماد وتتوزع بين اتجاهين رئيسين:

كان أولهما الاتجاه الإسلامي الذي جسد النزعة الجماعية إذ كان امتداداً طبيعياً لما يسمى بـ«الجماعة الإسلامية» والتي كانت تشكل جمهور الدولة الأولى، وكانت تعبر عن مصالح الفئات المتوسطة والمحدودة الدخل، وقد تحسنت أوضاعها الحياتية بشكل جذري في المجتمع الجديد. وكانت تمثل هذا الاتجاه مجموعة نخبوية لها مكانة لافتة في تاريخ الدعوة، لذا كان لها الثقل المعنوي في سياسة المدينة وتطوراتها. وكان منها علي بن أبي طالب إذ توجهت الأنظار إليه اعتقاداً بأن الخلافة آيلة إليه[٥].

أما الاتجاه الثاني فكان اتجاهاً قبلياً قرشياً[٦]، وكان يتكون من تحالفات مصلحية بين كبار التجار الذين كانوا يسيطرون على الاقتصاد قبل الإسلام وكان أبو سفيان واجهة لهم، وقد تصدى هذا الاتجاه بكل قوته للإسلام وعبأ حلفاءه لضرب دولته في المدينة، ولكنه وبعد معركة الخندق لم يجد بداً من التسليم بالأمر الواقع وفتح أبواب مكة أمام الرسول ﷺ ودينه. وقد نجح بما لديه من خبرة وعلاقات

(٤) سعد رستم، الفرق والمذاهب الإسلامية، دار الأوائل، ط٧ ٢٠٠٩، ص ١٩.

(٥) إبراهيم بيضون، من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دار النهضة العربية، بيروت، ص ١٥

(٦) سعد رستم، الفرق والمذاهب الإسلامية، ص ٢٨.

واسعة في أمور السياسة من الوصول إلى مواقع النفوذ بعد وقت قصير من الفتح.

وبعد وفاة الرسول ﷺ تحمس أبو سفيان لعلي رضي الله عنه أشد الحماس ظناً منه أنه سيكون الخليفة لرسول اللهﷺ ولكنه سرعان ما تحول نحو أبي بكر رضي الله عنه[٧]. كان لأبنائه الدور البارز في الدولة الراشدية وسرعان ما انقلبوا عليها منتهزين كل الفرص السانحة لتحقيق مشروعهم السلطوي الخاص، وكان ذلك بعد انتصارهم في موقعة الحرَّة[٨]. وسنعرض الآن ما حصل عندما توفي رسول الله ﷺ وكيف اختلفت الأمة وتشتتت الكلمة فصار الناس على أربع فرق هم: فرقة الأنصار أصحاب السقيفة، وفرقة المهاجرين الذين بايعوا أبا بكر رضي الله عنه، والفرقة الثالثة شكلوا بني هاشم الذين اجتمعوا في منزل فاطمة مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وفرقة رابعة هي العرب الذين امتنعوا عن دفع الزكاة[٩] إلى عمال أبي بكر رضي الله عنه. وهذه كانت أول فرقة حدثت في الإسلام، ولم يدم هذا الخلاف طويلاً. فإن المهاجرين انتصروا في إقناع الأنصار بأحقية أبي بكر رضي الله عنه[١٠]، وتمت بيعته بالخلافة في السقيفة وذلك بإجماع كل الحاضرين. وهذا التجاوز للخلاف حدث بسبب قوة إيمان الأنصار وإن استثنينا منهم رجلاً هو سعد بن عبادة رضي الله عنه.

أما الرأي الثالث وهو رأي بني هاشم من قريش فقد أُخمد الخلاف في مدة حكم أبي بكر وعمر وأثير في خلافة عثمان رضي الله عنه وذلك لأن شخصية أبي بكر وعدالة عمر وحزمه، كان لهما الأثر الكبير في منع الفتن من أن تظهر والخلافات من أن تنبثق[١١]. فضلاً عن انشغال المسلمين في الفتوح والجهاد والتعاون من أجل توسيع رقعة الحكم الإسلامي ونشر الدين في كل أنحاء العالم، وكل هذه الأهداف السامية حالت دون ظهور الخلافات الداخلية. حتى جاءت الفتن في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه وابتدأت بعد مقتله الذي كان السبب في حرب إسلامية - إسلامية[١٢].

وقبل الخوض في هذه الخلافات وبيان أسبابها، لا بد أن نعرض طرائق انعقاد الإمامة لكل من الخلفاء الراشدين حيث تمت بثلاثة مسالك مختلفة:

المسلك الأول هو تنصيب أبي بكر الصديق رضي الله عنه على الخلافة في سقيفة بني ساعدة[١٣] حيث حصل الانتخاب المباشر من المسلمين وبشكل سريع اتقاء للفتنة التي كادت تهدد الكيان وذلك بسبب عدم ورود نص واضح من قبل النبي ﷺ في من يخلفه من المسلمين بعد وفاته[١٤]. وكأنما أراد بذلك أن يترك الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا من يصلح لاعتلاء منصب الخلافة جرياً على عادة النظام القبلي الذي ألفه العرب، وبخاصة أنه لم يخلف ولداً ذكراً يستخلفه من بعده. لذا كان اجتماع الأنصار للتباحث في أمر الخلافة، وقد رشحوا سعد بن عبادة رضي الله عنه زعيم الخزرج ليتولى أمر المسلمين[١٥]. وعندما بلغ مسمع أبي بكر وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) خبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة مضيا إلى هناك مسرعين بسبب أهمية وخطر الموضوع المطروح من مشكلة الحكم، والتقيا

(٧) إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص ١٧.
(٨) إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص ١٦.
(٩) إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص ٢٥.
(١٠) الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ص ١٤.
(١١) سعد رستم، المرجع نفسه ص ٢٦.
(١٢) صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملاين-بيروت، ط٢، جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ-١٩٦٨م. ص ٨٧.
(١٣) للتوسع انظر إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص ١٩.
(١٤) محمد سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس،بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص ٦٧.
(١٥) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر١٩٦٠م، ج٤، وج٣، ص ٢٠٠.

في طريقهما أبا عبيدة عامر بن الجراح ﷺ فأخذاه معهما وشق أبو بكرﷺ طريقه إلى صدر المجتمعين، وخطب فيهم مبيناً رأي المهاجرين في مشكلة اختيار خليفة لرسول الله ﷺ. وقد أجمعت الروايات التاريخية على أن كلمة المسلمين قد أجمعت على أن يكون أبو بكر ﷺ أول خليفة للنبي، فهو خليفته في الصلاة، ومؤنسه في الغار، وصاحبه في الهجرة، فضلاً عن شدة إيمانه وسمو أخلاقه، وتضحيته في سبيل الله[١٦]. وفي ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٣هـ/٢٣آب ٦٣٤م توفي أبو بكرﷺإثر إصابته بالحمى، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ودفن في بيت عائشة بجانب قبر النبي[١٧]. لقد كانت الحجة الأقوى للذين اختاروا أبا بكرﷺ قولهم في السقيفة: (كيف لا نرضاه لدنيانا وقد رضيه رسول الله ﷺ لديننا) وذلك في إشارة إلى آخر صلاةٍ في حياة النبي كان قد أم بها أبو بكر ﷺ بناءً على رغبة رسول الله ﷺ وتلبيةً لأمره حين قال: (مروا أبا بكر أن يصلي بالناس).

أما المسلك الثاني في انتخاب الخليفة، كان طريقة استخلاف عمر بن الخطاب ﷺ؛ إذ اختاره أولاً أبو بكر ﷺ -وهذه طريقة العهد- بعد أن استشار كبار الصحابة وعامة المسلمين، وعهد إليه بها، ثم أخذت له البيعة من عامة المسلمين بعد وفاته، وتم ذلك دون مناقشة، بسبب الثقة الكبيرة في حزم وعدالة وقوة عمر ﷺ. وكان أبو بكر ﷺ أول من عهد بالخلافة من بعده إلى رجل معين ونصب خليفة بمقتضى ذلك[١٨]. وفي فجر يوم الأربعاء (لأربعٍ بقين من ذي الحجة عام ٢٣هـ/أوائل تشرين الثاني٦٤٤م، دخل المسجد ليؤم بالصلاة وإذ برجلٍ يجلس بجانبه وهو أبو لؤلؤة فيروز يأخذ خنجره المسموم ويطعنه

(١٦) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه ص ٦٨.
(١٧) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه،، ص ٨١-٨٢.
(١٨) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه، ص ٨٢.

عدة طعنات. توفي عمرﷺعلى أثرها بعد ثلاثة أيام، ودفن بجوار قبر أبي بكر ﷺ والذي يلي قبر النبي ﷺ[١٩].

والمسلك الثالث هو طريقة عمر ﷺ في الاستخلاف، إذ رشح للخلافة ستة أنفار من خيرة الصحابة وطلب منهم أن يختاروا أحدهم، وذلك خلال ثلاثة أيام بعد وفاته[٢٠]، وهذا الأمر حصل وهو يحتضر[٢١]. وقد كان يريد بهذا المسلك العودة إلى نظام الانتخاب والشورى. وهؤلاء الستة هم: علي بن أبي طالبﷺ من بني عبد المطلب، وعثمان بن عفان ﷺ من بني أمية، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ من بني زهرة، وسعد بن أبي وقاصﷺ من بني زهرة، والزبير بن العوامﷺ من بني أسد[٢٢]، وطلحة بن عبيد اللهﷺ من بني تيم وهم عشيرة أبي بكرﷺ[٢٣]. وكان عمر ﷺ قد أشرك ابنه عبد اللهﷺ على أن لا يكون له من الأمر شيء، وخصه بمهمة الاختيار من بين أعضاء المجلس في حالة تساوي عددهم بعد التصويت، مشترطاً قبول مختلف الأطراف بذلك، مانحاً إياه سلطة تحكيمية غير أنه اختفى فيما بعد عن مجرى الأحداث[٢٤].

قام مجلس الشورى باجتماعه الأول، بناءً على رغبة عمرﷺ قبل وفاته، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى انتخاب خليفة للمسلمين. وعادوا بعد وفاته وعقدوا اجتماعهم الثاني[٢٥]. وبعد كرٍ وفر في عدم الوصول إلى اتفاق، قام عبد الرحمن بن عوفﷺ بمبادرة الانسحاب من مجال الاختيار للخلافة، ولكنه طلب أن

(١٩) الطبري: المصدر نفسه، ص ١٩٠-١٩٤.
(٢٠) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩٠.
(٢١) وهو أبو لؤلؤة المجوسي، كان خاددم المغيرة بن شعبة، إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص ٩٧.
(٢٢) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٢٦٢.
(٢٣) محمد سهيل طقش، المرجع نفسه، ص ٩٤.
(٢٤) محمد سهيل طقش، المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٥.
(٢٥) الطبري، المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٢٩.

يكون له حق اختيار الخليفة المقبل بنفسه، وأعطاهم عهداً بالعدالة الكاملة في الاختيار وأقسم على ذلك. وبعد ذلك انحصر الاختيار بين علي وعثمان، أشار عبد الرحمن بن عوف ﷺإلى معرفة رأي الأمة، فاستشار مختلف فئات المجتمع، فأشارت عليه الأكثرية باختيار عثمان ﷺ. ويبدو أنه كان لبني أمية الدور الدعائي الكبير لترجيح انتخاب عثمان ﷺ بهدف تعزيز نفوذهم الذي فقدوه بعد فتح مكة[٢٦]. واشترط على الرجلين العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده، وتجنب حمل الأقارب على رقاب الناس. فقبل عثمان ﷺ ورفض علي ﷺ متعللاً بأنه سوف يبذل جهده، مما دفع بعبد الرحمن وأصحاب الشورى وعامة الناس إلى اختيار عثمان ﷺ.

والواقع أنه كان يتنازع الساحة السياسية آنذاك تياران: الأول كان ذا ارتباط بروابط الدم بين عشيرة النبي ﷺ والأقربين الذين كان علي ﷺ مرشحهم، وقد كان لهم السابقة في الإسلام. والتيار الثاني: كان قرشياً متصلاً بالقابلية على التمثيل الأفضل لقريش وبالتالي مقرب من الأمويين وكان مرشحهم عثمان بن عفان ﷺ[٢٧].

اختار هؤلاء الستة عثمان بن عفان ﷺ الذي رشحوه، وقامت عامة المسلمين بمبايعته. وكان من المسلمين فريقٌ بايعه وفي نفسه شيء، ولكنه وافق على هذه البيعة، على مضض، منعاً للاختلاف بين المسلمين. وذلك لأن عمر ﷺ كان قد استبعد الأنصار من الخلافة بالرغم من مآثرهم واستحقاقهم. والراجح أن سبب ذلك هو أن الأمر كان يتعلق بقرشيين بارزين منذ أيام أبي بكر ﷺ.

ونتيجة لذلك تفاوتت ردود الفعل على نتائج مجلس الشورى بين التأييد والرفض. فقد عارضها عدد من الصحابة لاعتقادهم بأن اختيار عثمان يعد تجاوزاً لأحقية علي في الخلافة، ولذلك حفلت الروايات التي استعرضت مواقفهم بالإسقاطات الشيعية والعباسية الواضحة. وهذه الشخصيات المعارضة أمثال العباس بن عبد المطلب، والمقداد بن عمرو، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر (رضي الله عنهم) سيكون لها الدور البارز في الفتنة من خلال معارضتها الصارمة لسياسة عثمان ﷺ[٢٨]. وبالمقابل كان هناك عدد من الصحابة يؤيدون قرار مجلس الشورى بمبايعة عثمان ﷺ، مع التباين في أسباب هذا التأييد. وكان منهم المغيرة بن شعبة وأقارب عثمان مثل عبد الله بن أبي ربيعة وعبد الله بن أبي سرح[٢٩]. وعلى هذا النحو تمت بيعة عثمان في الليلة الباقية من شهر ذي الحجة سنة ٢٣هـ/ ٥ تشرين الثاني سنة ٦٤٤م[٣٠].

وفي عهد عثمان ﷺ، ابتدأ الخلاف قوياً وحاداً بين المسلمين وبدأت الفتن، وكانت الخطوة الأولى للافتراق السياسي بين المسلمين، وكذلك الخطوة الأولى لتكوين المذاهب السياسية الأولى التي ما زالت تحمل بذور الخلاف إلى يومنا هذا.

أسباب الخلافات والفتن[٣١]

وقد انقسم عهد عثمان ﷺ الممتد اثناعشر عاماً بين مرحلتين كل منها ست سنوات، فالمرحلة الأولى كانت هادئة والمرحلة الثانية كانت مضطربة يملأها التوتر والفتن حتى وصلت إلى مقتله. فقد تراكمت الوقائع الصغيرة واتخذت اتجاهاً ومعنى وأضحت غير قابلة للتسامح[٣٢].

(٢٦) عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ الإسلام، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٦٠، ص ٥٠.
(٢٧) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه، ص ٩٥.
(٢٨) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٣٢-٣٥.
(٢٩) الطبري، المصدر نفسه، ج٤ ص ٢٣٣.
(٣٠) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه، ص ٩٦.
(٣١) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩١.
(٣٢) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه، ص٩٧.

ومن أهم أسباب هذه الفتن في عهد عثمان رضي الله عنه[٣٣]:

إن أول هذه الأسباب هو سماحه لكبار المهاجرين والمجاهدين الأولين بالذهاب إلى الأمصار، وكان عمر رضي الله عنه قد منعهم من ذلك إلا لولاية أو لقيادة جيش كي يستفيد من نقدهم في المدينة، ولمنع افتتان الناس بهم خاصة وأن بعضهم كان حديث العهد بالكفر ولم تشرب قلوبهم حب الإسلام، فكان فيهم من يدعو إلى الفتنة وفي غيرهم سماعون لهم.

والسبب الثاني الذي جعل هذه الفتن تنفجر في عهد عثمان رضي الله عنه كان حبه لقرابته حيث ولاهم وقربهم وكان يخصهم بالاستشارة في شؤون الدولة، وفي بعض الأحيان لم يكونوا أهلاً لذلك، ويستبعد من الاستشارة الصحابة، أمثال علي وطلحة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم. وهؤلاء كان عمر وأبو بكر رضي الله عنهما يستشيرونهم في كل أمور الدولة. وكان أقاربه الأمويون يحرضونه دائماً على عدم السماع للومة لائم وذلك لضمان استمرار القبض على ناصية الحكم. هذا ما ألب الناس عليه وجاؤوا إليه من مصر والكوفة فاستعان بعلي رضي الله عنه على هذا الأمر فنصحه بأن يكلمهم بما يريدون أن يسمعوه. فتكلم إليهم بما نصحه علي، فرق له الناس وبكوا وارتدت القلوب الشاردة وكادت نوازع الشر تموت لولا تدخل مروان بن الحكم الذي أخذ يلومه على الضعف والاعتراف بأخطائه[٣٤]، وكان الناس ما زالوا في باب عثمان رضي الله عنه، فخرج إليهم مروان وكلمهم بفضاضة وتوعدهم بالحرب للدفاع عن ملك الأمويين وعدم تركه. وهذا الأمر أعاد البغض إلى قلوب الناس. خاصة وأن هناك من أقاربه من كان عدواً له حيث قام بإثارة الفتن عليه مثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ولاه عثمان رضي الله عنه بعد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وأخذ يحرض الناس عليه وكان السبب في محاصرته من قبل المصريين وبالتالي قتله. وكل هذه الأمور أفقدت الناس الثقة به، وفتحت الباب واسعاً أمام الفتن[٣٥].

السبب الثالث هو اللين وعدم الحزم مع عماله في الأمصار، خاصة وأن هؤلاء لم يكونوا أولي عدل مما حرض الناس عليه وعلى ولاته، كما أنه لم يستعمل الشدة مع من حاصره وأثار الفتن في المدينة وذلك منعاً للقتل والقتال وحقناً لدماء المسلمين[٣٦].

السبب الرابع الذي يُعدّ أهم وأعظم الأسباب هو وجود طوائف من الناقمين على الإسلام والذين يكيدون لأهله ويعيشون في ظله إذ دخلوا في الإسلام ظاهراً وأضمروا الكفر باطناً وأخذوا يشيعون الفتن ضد عثمان رضي الله عنه ويمتدحون علياً رضي الله عنه، وأهم هؤلاء كان عبد الله بن سبأ وهو من أصل يهودي أخذ يدور بالأمصار من بلد إلى بلد يبث أفكاراً كافرة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعن علي وعن عدم أحقية عثمان بالخلافة فافسد كثيراً في عقول الناس[٣٧].

وتضافرت هذه الأسباب إلى أن أدت إلى مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه من قبل الحاقدين على حكمه. (في ١٨ذي الحجة سنة ٣٥هـ/١٧حزيران ٦٥٦م)، وحين علم علي رضي الله عنه بخبر مقتله ذهب إلى بيته وأغلق الباب على نفسه فلحقه الناس وأخذوا يطالبونه بتولي أمور المسلمين وبايعوه على ذلك[٣٨]. وفر الأمويون من المدينة عقب حادثة مقتل عثمان رضي الله عنه، كما غادرها أكثر الصحابة، وهرع من بقي فيها إلى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لمبايعته بالخلافة، إذ لا يمكن أن تبقى الأمة بلا خليفة خاصة في هذه الظروف الخطيرة، ورغم أن علياً رضي الله عنه قبل مكرهاً تولي منصب الخلافة خشية منه على الدين من الفتنة والتمزق، إلا أنه اشترط أن تكون البيعة علنية في المسجد، وعلى رضا من عامة المسلمين وبخاصة أهل الشورى وأهل

(٣٣) إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص ١٠٣-١١٣.
(٣٤) إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص ١١١.
(٣٥) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩٢.
(٣٦) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩٢.
(٣٧) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩٣-٩٤و٢٦٤-٢٦٥.
(٣٨) إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص ١١٧-١١٨.

بدر[٣٩]. وكان هذا القبول للولاية معاكساً تماماً لما كان يريده علي ﷺ، وقدم أكبر خدمة لصناع الفتنة آنذاك، ففي عهده ازدادت الفتن وحدثت الحروب الدامية بين المسلمين وذلك بسبب رفض الأمويين المبايعة له واخذوا يطالبونه بدم عثمان ﷺ. وكان أول من ثار عليه طلحة والزبير اللذان بايعاه بالخلافة ثم نكثا البيعة، واستعانا بعائشة زوجة الرسول ﷺ ودارت حرب بين الفريقين انتهت بانتصار علي ﷺ عليهم حيث أعادهم إلى صفوف المسلمين[٤٠].

أما أهل الشام فلم يبايعوا علياً ﷺ، بل بايعوا معاوية بن أبي سفيان ﷺ[٤١] الذي حمل قميص عثمان الملطخ بالدماء وأخذ يحقن الناس وأعلن الحرب على علي. وفي أثناء المعركة، حين وجد معاوية أن النصر قد لاح إلى جانب علي، لجأ إلى حيلة إذ أمر الجنود برفع المصاحف على رؤوس الحراب، وأخذوا ينادون بالتحكيم للقرآن. وهنا وافق علي بعد أن رأى أن عدم الموافقة ستثير قواده ضده، وكانت نتيجة التحكيم لصالح معاوية[٤٢]، وهنا قام الخوارج في وجه علي[٤٣] وأعلنوا تكفيره بسبب هذا التحكيم، وقالوا بأن الحكم هو لله وحده. وهذه كلمة حق أريد بها باطل لأنهم هم الذين حرضوه في بادئ الأمر على التحكيم ثم عادوا وانقلبوا عليه[٤٤].

وروي عن علي بن أبي طالب أن أحد المنافقين سأله يوماً عن سبب عدم الإجماع عليه في تولي الخلافة، بينما كان هذا حاصل لأبي بكر وعمر قبله، فأجابه بظرافة، بأن الله سبحانه وتعالى وفق أبا بكر وعمرَ لانه ممنوع من الصرف (رضي الله عنهما) برجال أمثالي، أما أنا فابتليت برجال أمثالك.

وما زال الخلاف محتدماً بين علي ومعاوية، حتى قتل علي على يد عبد الرحمن بن ملجم، وهو أحد الخوارج في رمضان سنة ٤٠هـ/كانون الثاني٦٦١م[٤٥].

وبعد وفاة علي ﷺ، خلفه ابنه الحسن ﷺ بإمامة المسلمين الذي قام بالتنازل عنها لمعاوية ﷺ[٤٦] مشترطاً عليه بأن يحكم بما أنزل الله. واستمرت النزاعات والفتن بعد الحسن، إلى أن جاء أخوه الحسين ﷺ، وكان معاوية قد عهد بالخلافة لابنه يزيد الماجن الفاسد الذي لا يصلح لإدارة شؤون الأمة. وهنا رفض الحسين مبايعته، فلجأ يزيد إلى محاربته وقتله في كربلاء، وقام باضطهاد أتباعه. وفي ظل هذه الفتن نما وترعرع المذهب الشيعي، وإن كان البعض يقول بأن الخلاف له جذور تمتد إلى وقت وفاة النبي ﷺ، إلا أن الظلم الذي لقيه الحسين بن علي ﷺ وأتباعه على يد يزيد هو المسؤول الأول عن انثلام الجسم الإسلامي إلى فرق. فنلاحظ هنا، بأن عهد الخليفة الثالث قد أنتج الشيعة والخوارج وهما متعارضان. ولكن بقي هناك من أخذ خط الاعتدال وسموا في التاريخ الإسلامي بأهل السنة وسنأتي على ذكر هذه المذاهب فيما بعد.

نتائج الخلافات والفتن

من أهم نتائج الخلافات والفتن والتي كان محورها الأساسي الخلافة أو الإمامة أو إمارة المؤمنين لا فرق، المهم هو ما أنتجته هذه المشادات والنزاعات من فرق سياسية متناقضة ومذاهب إسلامية أحاطت نفسها بخنادق عميقة يستعملها أعداء الإسلام على مر العصور ومتى شاؤوا لتحقيق أهدافهم الاستغلالية الهدامة. ورغم هذا فلا بد

(٣٩) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه، ص ١٠٥.
(٤٠) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه، ص ١٠٦- ١٠٨.
(٤١) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٣٨.
(٤٢) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٣٩.
(٤٣) الطبري، المصدر نفسه، ج٥، ص ٧٢.
(٤٤) الإمام علي بن أبي طالب، كتاب نهج البلاغة من١-٤ أجزاء، جمع العامة الشري الرضي، شرحه وضبطه الإمام محمد عبده، مؤسسة المعارف بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، بإشراف الدكتورين عبدالله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، حديث ١٨٢، ص ٤٣٥.
(٤٥) محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه، ص ١١٠.
(٤٦) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٦٣.

لنا من عرض هذه المذاهب السياسية الإسلامية وآرائها. إلا أنه يجب التنبيه قبل البدء بأن المذاهب الإسلامية قد ابتدأت سياسية وتنزع منزعاً سياسياً ولكن طبيعة السياسة الإسلامية هي ذات صلة وثيقة بالدين فهو قوامها ولبها لذلك كانت تدور في مبادئها وآرائها حول الدين فتقترب منه حيناً وتبتعد عنه أحياناً. ومن أهم هذه المذاهب والتي هي أساسية ورئيسة في انقسام المسلمين، والتي أول ما ظهرت في عهد عثمان رضي الله عنه، وكبرت وتبلورت في عهد علي رضي الله عنه.

هذه المذاهب الثلاثة هي: الشيعة والخوارج وأهل السنة وقد تفرع عن هذه المذاهب فرق عدة ذات آراء متناقضة أحياناً، فهي تميل صوب المغالاة في كثير من الحالات. وهنا سنعرض وبشكل مختصر آراء الفرق الرئيسة حول الإمامة[٤٧]، وبعض نقاط الاختلاف بينها.

الشيعة: وهم أقدم المذاهب السياسية الإسلامية وقد ظهروا في عهد عثمان رضي الله عنه[٤٨] ونموا في عهد علي رضي الله عنه[٤٩]، وذلك بسبب إعجابهم الشديد بدينه وعلمه وحكمته[٥٠]، فكان الدعاة ينشرون آراءهم به ما بين الاعتدال والمغالاة[٥١]. وهنا يذكر العلامة صبحي الصالح في كتابه النظم الإسلامية أنه لا فروق جوهرية بين أهل السنة ومعتدلي الشيعة، ولو أن كلا الطرفين عقل لأمكنهم أن يمحوا هذه الفوارق مع الأيام[٥٢].

فبسبب كثرة نزول الأذى بعلي رضي الله عنه وأولاده، تعاطف الناس معهم واتسع نطاق هذا المذهب وكثر أنصاره وذلك لأن هؤلاء هم أحفاد الرسول وذريته. وقوام هذا المذهب هو أحقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة من بعد رسول الله ﷺ[٥٣] وذلك لأن الإمامة عندهم ليست من مصالح العامة ولا يجوز أن يكون النبي قد فوضها إلى الأمة بل كان من الممكن تعيين إمام لهم، ويجب أن يكون هذا الإمام معصوماً من الكبائر والصغائر. كما يجب أن يكون حجة وتظهر على يده معجزة، يقولون إن هذا متوفر في الإمام علي رضي الله عنه ويؤيدون أفكارهم بعدة أحاديث سبق ذكرها حول هذا الموضوع وغيرها مثل: «حربك حربي وسلمك سلمي» ومثل «اللهم والي من والاه وعاد من عاداه». وقوله «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»[٥٤]. إذاً على الأمة اعتماد النص في اختيار الإمام، وبحسب قولهم بأن علياً رضي الله عنه هو المنصوص عليه ومن بعده أولاده، وذلك لأنه الأفضل بين الصحابة. وقد ساعدهم في هذا الرأي كثير من الصحابة.

ولم تكن الشيعة على درجة واحدة بالنظر إلى علي رضي الله عنه فمنهم من غالى كثيرا في حبه إلى درجة التأليه والتقديس وتفضيله على النبي ﷺ. وهؤلاء كان يبث أفكارهم ويسممها من هم منافقون ويتسترون بالإسلام أمثال عبد الله بن سبأ الذي سبق الحديث عنه ومنه انبثقت السبئية. ولكن أكثر الشيعة هم المعتدلون الذين يكتفون بتفضيل علي رضي الله عنه على الصحابة ويبقونه في منزلة البشر دون التقديس. وقد ورد في شرح نهج البلاغة[٥٥] لابن أبي الحديد ما يشير إلى أن هؤلاء المعتدلين قالوا إن علياً رضي الله عنه أفضل الخلق في الآخرة دون المساس بالمهاجرين والصحابة الذين أتوا قبل علي وذلك لأنه كان معهم في السراء والضراء وأحبهم ورضي بإمامتهم وصلى خلفهم وأتمر بأوامرهم ولم ينكرهم، كذلك فعل

(٤٧) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٥١.
(٤٨) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩٦.
(٤٩) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٤٢.
(٥٠) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩٧.
(٥١) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص١٠٧و ص ١١٤.
(٥٢) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩٧.
(٥٣) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٢٠٩.
(٥٤) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ٩٨.
(٥٥) ابن أبي الحديد، توفي ٥٤٤هـ، شرح نهج البلاغة، ج١، القاهرة، ١٣٢٩هـ، ص ٦٤.

الشيعة المعتدلون، ولكن حين تعرض الإمام لأذى معاوية نكروه ولعنوه.

وهناك فرق تفرعت عن الشيعة منها معترف بها، ومنها من نكر الشيعة والمسلمون عامة انتماءها إلى الإسلام ومن هذه الفرق السبئية أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الأصل، والغرابية التي تقول بأن شبه النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه كشبه الغراب بالغراب لذلك أخطأ جبريل في إنزال الوحي!. ثم الكيسانية والزبدية[٥٦] والإمامية الإثنا عشرية والإمامية الإسماعيلية[٥٧]. وهاتان الفرقتان تشكلان معظم الشيعة اليوم تعبيرك هذا يفهم بأن معظم الشيعة ممن ينكر انتماؤهم إلى الإسلام اعيدي الصياغة للتعبير عن المقصود، ثم تأتي النصيرية وأخيراً الحاكمية الدروز. فالحاكمية هم من أله الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي أله نفسه ودعا الناس إلى عبادته. وهذه الفرقة قد غالت في معنى الإشراق الإلهي إذ يقولون بأن الإله يحل في نفس الإمام، وهؤلاء خلعوا الربقة، وكانت السرية طريقتهم المفضلة وفي ظلها تفرخت ؟آراؤهم الكافرة، وكانت هذه الآراء السبب في وجود الحاكمية.

والدروز على صلة وثيقة بالحاكمية وهم منتسبون إلى رجل فارسي اسمه حمزة الدرزي، وهو الذي كان يوسوس للحاكم بأمر الله بهذه الأفكار الشريرة. أين رقم الهامش؟

الخوارج[٥٨]: وقد نشأت هذه الفرقة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد قالوا بصحة خلافة أبي بكر وعمر لصحة انتخابهما[٥٩]، وساندوا عثمان رضي الله عنه في سنينه الأُوَل فلما غير وبدل أوجبوا عزله، وأقروا بصحة خلافة علي[٦٠]، وكانت واحدة من الفرق التي تشيعت له مع فرقة الشيعة إلا أن الشيعة أسبق منهم.

حارب الخوارج في جيش علي ضد معاوية وكان لهم رأي في التحكيم بدايةً، إذ أشاروا على علي باختيار أبي موسى الأشعري لينوب عنه في التحكيم، مقابل عمرو بن العاص من قبل معاوية ولما انتهى التحكيم وآلت الخلافة إلى معاوية رفضوا هذا الحل وتنكروا لعلي بعد أن كانوا قد خرجوا على عثمان وبني أمية سابقاً، فسموا الخوارج لهذا السبب[٦١].

وكانت عبارتهم المفضلة التي كانوا يواجهون علياً بها ويقطعون عليه صلاته وخطبه، هي أن الحكم لا يكون إلا لله وعلي قد كفر بموافقته على هذا التحكيم. وكانوا لا يثقون إلا بمن تنكر وتبرأ من عثمان وعلي وحكام بني أمية الظالمين وقد ناقشهم علي ورفض حربهم إلا حين تجاوزوا الحدود الشرعية وفعلوا فعل القتل فحاربهم على ذلك وليس على أفكارهم وآرائهم، كما ناقشهم عمر بن عبد العزيز ولكنه لم يتنكر لأجداده من حكام بني أمية فرفضوه أيضاً.

وأهم المبادئ التي تجمع فرق الخوارج الذين يتمسكون بظاهر النصوص ويكفرون من أخطأ من المسلمين ولو كان الخطأ بسيطاً، ومن الأراء التي يجتمع عليها الخوارج الآتي:

١- أن الخليفة أو الإمام لا تنعقد ولايته إلا بانتخاب حر وصريح يقوم به عامة المسلمين ويستمر خليفة ما دام قائماً بالعدل مقيماً للشرع مبتعداً عن أي خطأ وإلا فيجب عزله فوراً.

(٥٦) للتوسع في هذا الموضوع انظر صبحي الصالح، المرجع نفسه، ١١٧-١٢٩. سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٢١١.
(٥٧) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٢١٠.
(٥٨) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ١٣٠.
(٥٩) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٢٠٠.
(٦٠) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٢٠٠٠.
(٦١) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج٣، ص ١٩٨.

٢- ليست الخلافة في بيت من بيوت العرب دون غيره ولا فرق بين المسلمين، جاء في حديث للنبي ﷺ: «أن لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر علَى أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أَبَلَّغْتُ؟»[٦٢]، ومنهم من قال أن الأفضل أن لا يكون له عشيرة وعصبية كي يسهل عزله أو قتله إن أخطأ.

٣- إن «النجدات» من الخوارج يرون أنه لا حاجة إلى إمام، إذا كان الناس متناصفين متصافين بينهم فإقامة الإمام ليست واجبة بل جائزة.

٤- يرى الخوارج بتكفيرهم أهل الذنوب دون الفرق بين ذنب وآخر، بل تشددوا إلى اعتبار الخطأ بالرأي ذنباً وقد اعتمدوا على ظواهر بعض النصوص القرآنية في تكفير الناس.

ويقال إن من أسباب تقشف وغلاظة أخلاق الخوارج هي أنهم من عرب البادية وللبيئة تأثيرها القوي على تفكيرهم وتعاملهم مع الآخرين.وكما في الشيعة فقد تفرع عن الخوارج عدة فرق هي:الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والعجاردة والأباضية[٦٣]، وهناك خوارج لا يعدون مسلمين كاليزيدية والميمونة.

مذهب أهل السنة: من هم أهل السنة؟ يبدو أن تسمية أهل السنة عند علماء المسلمين تطلق على كل من يلتزم السنة النبوية[٦٤]. كما أطلق عليهم اسم أهل السنة والجماعة، إذ إن الجماعة هم صحابة رسول الله ﷺ. ولعل المقصود بها جمهور المسلمين ممن لم ينتم إلى فرقة بعينها من الفرق التي جاءت عن طريق السنة. ونستطيع أن نقول بأن أهل السنة هم أصحاب الآراء المعتدلة[٦٥] بين المتطرفين من الفرق الأخرى. وقد أجمع أهل السنة على أربعة شروط مهمة للإمامة وذلك كي تسمى خلافة نبوية. وهذه الشروط هي: القرشية، والبيعة، والشورى والعدالة.

- **الشرط الأول، القرشية**: وهي أن يكون الإمام من قريش وذلك بسبب الآثار الكبيرة الواردة في فضل قريش. ولكن رغم الآثار الواردة في فضل قريش ورغم كل النصوص التي ترفع من شأنها وتميزها عن غيرها من العرب، لا تلزم القرشية للإمامة بقدر ما تلفت النظر إلى أهمية ومكانة قريش بين العرب وفي تحملها لمشقات ومآسي الدعوة الإسلامية. ففي اجتماع السقيفة اتجه المؤمنون إلى اختيار الخليفة من المهاجرين القرشيين لسببين: الأول هو أفضلية المهاجرين على الأنصار في اعتناق الإسلام وذكرهم أولاً في القرآن وبيان مقامهم في الصبر على البلاء والشدائد في بداية الدعوة الإسلامية. والثاني مكانة قريش السامية عند العرب قبل الإسلام. لذا قال أبو بكر رضي الله عنه في آخر خطبته: «أن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش».

ولكن بالرغم من هذا القول والأحاديث الشريفة الواردة عن النبي ﷺ، والتي سبق ذكرها في هذا البحث، فإن اختيار الخليفة أو الإمام كان من قريش بشرط أن يقيم الدين، وإن لا فيجوز أن يكون من غير قريش إذا التزم بهذا الشرط الهام في نظر أهل السنة، وكذلك يجب أن تجتمع فيه شروط الإمامة أي القيادة وهي القوة، والمنعة والتقوى. فالخلافة تكون حيث تكون هذه المعاني.

- **الشرط الثاني** في اختيار الإمام عند أهل السنة هوالبيعة من قبل أهل الحل والعقد أولا، ثم من قبل الأمة التي تتعهد للإمام على الطاعة له في المسرة والمضرة وهو بدوره يتعهد لهم بإقامة الحدود والفرائض ويسير على سنة العدل بحسب كتاب الله وسنة نبيه.

---

(٦٢) أحمد بن محمد بن حنبل، توفي ٢٤١هـ، كتاب المسند، مصر سنة ١٣١٣هـ. جزء ٦، ص ٥٧٠، حديث (٢٣١٠٥).
(٦٣) انظر سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٢٠٤-٢٠٨.
(٦٤) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٨٣.
(٦٥) سعد رستم، المرجع نفسه، ص ٨٦.

وقد أخذت البيعة عن النبي ﷺ، حيث بايعه الناس تحت الشجرة، ونزلت الآيات لتؤيد هذه البيعة. ثم بايع المسلمون أبا بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة، ثم عهد إلى عمر رضي الله عنه فبايعه الناس على الإمامة الكبرى. وبعد ذلك بايعوا عثمان رضي الله عنه في المدينة وذلك داخل المسجد النبوي، كما بايعوا علياً رضي الله عنه أيضاً في المدينة. واستمر أمر البيعة حتى عصر الأمويين وأوائل العصر العباسي.

- **الشرط الثالث، الشورى:** من أهم شروط الإمامة عند أهل السنة هو أمر الشورى، إذ نزلت فيها آيات قرآنية مثل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(٦٦)، وكذلك قال تعالى آمراً النبي ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٦٧). وكان النبي ﷺ يلتزم الشورى في كل أموره وأمور الدولة، وكذلك فعل صحابته من بعده.

ونستطيع أن نقول إن الحكم الإسلامي متلازم مع الشورى، فلا يجوز أن يفرض الحاكم وتقوم الشورى بعد ذلك. لهذا فإن الوراثة والشورى متناقضان ولا تجتمعان في باب واحد. ومن أشد ما أخذ على معاوية أنه حول الحكم الإسلامي إلى وراثي، وأبقى على البيعة التي فقدت معناها. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من بايع رجلاً بغير مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه». وهنا يتبادر إلى الذهن سؤالان، الأول من هم أهل الشورى في عهد الصحابة؟ والثاني إذا قام إمام من غير شورى فهل تجب طاعته إذا تمت الموافقة عليه؟

والجواب على السؤال الأول: إن الذين اختاروا أبا بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) هم من المهاجرين والأنصار الذين كانوا في المدينة، وكذلك الذين بايعوهم. وذلك بسبب عدم استقرار الدين في باقي الأقطار المفتوحة ونلاحظ بأن موضوعاً من هذا النوع يمكن أن يثير فتنة كبيرة بين المسلمين، والدليل على ذلك حركة الردة التي حاربها أبو بكر رضي الله عنه كانت من العرب الموجودين خارج مكة والمدينة.

وبقي المسلمون في المدينة ومكة حماة الدعوة ورعاتها. وفي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان العرب قد استقروا على الدين الإسلامي، ومع ذلك لم يأخذ البيعة إلا من أهل المدينة وذلك لانشغاله بالأحداث التي حصلت في بداية ولايته. خاصة وأن العصبيات الجاهلية عادت لتنبعث من جديد. وحيث إنه يجب في حال البيعة أن يقوم بها كل من الموالي والعرب، فخاف علي من الفتنة واختصر أخذها على أهل المدينة دون غيرهم. وبالمقابل فإن معاوية لم يترك له مجالاً ولم يمهله فانتفض عليه وأخذ لنفسه البيعة في الشام، وأعلن الحرب على علي. وهكذا بدأت كل الاضطرابات والحروب التي سبق الحديث عنها، وانتهت بتولي معاوية الخلافة وهو بدوره نسخ أمر الشورى وجعل الحكم وراثياً في أبنائه، وفرض على الناس الأمر الواقع في اختيار الإمام الموجود أو بالأحرى الذي اختاره هو، مستعملاً شعرته المشهورة أي التعامل مع الناس باللين حيناً، وبالقوة أحياناً أخرى.

(٦٦) سورة الشورى، آية: ٣٨.
(٦٧) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

أما الجواب على السؤال الثاني وهو هل يطاع من تغلب على الحكم دون شورى؟ لقد أجمع الفقهاء على أن المتغلب على الحكم إذا لم يكن هناك إمامٌ، وأقام الأخير العدل والدين بين الناس فتجب طاعته ومبايعته. ويرى الإمام مالك رحمه الله بحسب ما جاء في كتاب المدارك لابن نافع: أن أهل الحرمين إذا بايعوا ألزمت البيعة أهل الإسلام. فالاختيار السابق على البيعة ليس بشرط بل إن البيعة نفسها ليست بشرط، يكفي الرضا على الإمام، والذي بدوره يقيم الحدود والعدل. وكذلك يرى الامام الشافعي رحمه الله الاكتفاء بالرضا اللاحق. والعبرة عند الشافعية هي القرشية وإقامة العدالة ورضا الناس سواء كان سابقاً أم لاحقاً. ويرى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله نفس الرأي وذلك أن الأهم هو القبول ورضا الناس إن كان بالسيف أو بغيره. وهنا نلاحظ أن جمهور الفقهاء رأوا أن المتغلب على السلطة يقر فيها إذا استوفى شروط الإمامة، وعلى رأس هذه الشروط العدالة وإقامة الدين، ويضاف إليها شرطان وهما، أولا عدم وجود إمام عادل مرضي عنه بالأساس، والثاني أن يكون هناك فرصة للناس كي تختار وتنتخب وتعبر عن رأيها.

- **والشرط الرابع هو العدالة**[٦٨]: وصحيح أنها في هذا البحث أتت في الترتيب الرابع، إلا أنها من أهم الشروط لإقامة الإمامة عند جمهور أهل السنة، وذلك في جوهرها ولبها وهي تبدأ في الإمام حيث يجب أن يكون عادلاً بذاته وهنا قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[٦٩].

وعدالة الإمام تفرض عليه وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. كما أوجب الدين الإسلامي العدالة مع الأعداء، فقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٧٠]. والعدالة الإسلامية تشمل العدالة القانونية التي تجعل كل الناس سواسية أمام القانون الإلهي، فلا فرق بين الحاكم والمحكوم. فقد شرع القرآن والسنة أن الإمام لا يعفى من الحد، إذا ارتكب ما يوجبه، ولا من القصاص، إذا اعتدى على أحد، فلا حصانة في الإسلام للحاكم بل على العكس فهو أكثر مسؤولية أمام الله من الرعية. كما يشمل الإسلام العدالة الاجتماعية التي تنظم أسس التكامل الاجتماعي. ونلاحظ أن أركان الإسلام كلها ترتكز على المساواة والعدالة بين الناس؛ إذ ورد الكثير من الآيات والأحاديث التي تحض الناس على ذلك.

---

(٦٨) صبحي الصالح، المرجع نفسه، ص ١٦٠.
(٦٩) سورة النساء، آية: ١٣٥.
(٧٠) سورة المائدة، آية: ٨.

الخاتمة

نستخلص من هذا البحث أن أهم ما اختلف عليه المسلمون حول الإمامة (الخلافة) يدور حول عدة محاور أو أقطاب، وهي:

أولاً: أيجوز إقامة خليفتين في وقت واحد، أم وحدة الخلافة؟

ثانياً: أيجب لا يجوز أن تأتي هل مع أم المعادلة أن يكون الإمام قرشياً أم يصح أن يكون من كل المسلمين شرط أن تتوافر فيه شروط الإمامة العامة؟.

ثالثاً: أيجب أن يكون معصوماً عن الخطأ وذلك كونه لم يرتكب الأخطاء في حياته قط أم هذا غير ضروري؟

ولكل فرقة رأي في هذه الأمور وفي غيرها تتفق حيناً وتختلف أحياناً. كما أن الفرق الإسلامية قد اختلفت حول أمر الخلافة أتنعقد بالنص أم بالاختيار، وكل فرقة لها طريقتها الخاصة في شروط اختيار الإمام. وكل هذه الأمور لم تكن في بادئ الأمر على شكل مذاهب ممنهجة، متنافرة كما هي الآن، وذلك لأن المذهب السياسي يجب أن يكون ذا منهاج علمي لفريق من الدارسين والباحثين يبنون فيه أصولاً متميزة وواضحة لتفكيرهم، ثم يكون لكل منهاج طائفة أو مدرسة تعتنق هذه الأصول وتدافع عنها. فهذه المناهج وهذه المذاهب أو الفرق لم تتكون عند أول خلاف بل أن الخلاف كان يبتدئ بسيطاً ثم تتبلور الأفكار المختلفة وتكون المذاهب.

المقترح والتوصية

بعد كل ما عرضناه من مسائل حول الإمامة والاختلاف بين الفرق الإسلامية التي تتراوح بين الحدة لدرجة الحرب وبين الاعتدال في الرأي أحياناً. ومع الظروف التي أوصلت هذا العالم الإسلامي إلى ما هو عليه الآن من تشرذم وضعف وقلة حيلة، يبدو أنه يجب أن ننطلق بعقلية أخرى، هي عقلية الباحث عن الحقيقة وذلك بتجرد كامل عبر الحوار المسؤول. وقد رأينا كيف أن الله سبحانه وتعالى علم رسوله ص أسلوب الحوار مع الآخر، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٧١). وتفسيرها أن النبي ﷺ لم يكن شاكاً في أنه على هدى، وأنهم على باطل، وهو الذي جاء بالحق المبين: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٧٢)، ولكن الله تعالى أراد من أسلوب الحوار أن توحي لمن تختلف معه أنك تريد أن تبحث القضية معه كما لو كنت شاكاً، وأن يبحث القضية معك كما لو كان شاكاً، والنتيجة هي أن تتوافقا -لا أن تتنافرا- في رحلة البحث عن الحقيقة، لا لأنك تريد أن تؤكد نفسك أو يريد هو أن يؤكد نفسه، وذلك منعاً لأي تعصب قد يصل بنا إلى حالة العنف والحرب لا محال.

(٧١) سورة: سبأ، آية: ٢٤.

(٧٢) سورة:الزمر، آية: ٣٣.

المصادر والمراجع

• المصادر

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الحديد، توفي ٥٤٤هـ، شرح نهج البلاغة، ج١، القاهرة، ١٣٢٩هـ.
- ابن الأثير،الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١، ١٩٩٧م.
- أحمد بن محمد بن حنبل، توفي ٢٤١هـ، كتاب المسند، مصر، سنة ١٣١٣هـ.
- الإمام علي بن أبي طالب، كتاب نهج البلاغة من١-٤ أجزاء، جمع العامة الشريف الرضي، شرحه وضبطه الإمام محمد عبده، مؤسسة المعارف بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م بإشراف الدكتور عبدالله أنيس الطباع، والدكتور عمر أنيس الطباع.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة،
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر١٩٦٠م، ج٤.

• المراجع

- ابراهيم بيضون، من دولة عمر الى دولة عبد الملك، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٩١م.
- أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية، دار النهضة العربية، بيروت ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
- السيد محمد حسين فضل الله، كتاب الندوة الجزء الخامس، إعداد عادل القاضي، دار الملاك، بيروت، ط١،
- سعد رستم، الفرق والمذاهب الإسلامية، دار الأوائل، دمشق، ط٧، ٢٠٠٩م.
- صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملاين-بيروت، ط٢، جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ-١٩٦٨م.
- عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ الاسلام، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٦٠.
- محمد سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
- منير العجلاني، عبقرية الاسلام في أصول الحكم، دار الكتاب الجديد، ط٢، ١٩٦٥م،